حوارات من وحي رحلة «فرقة الفنون» الى لبنان

عكا

لاجئ : هل عكا أجملُ من المخيم؟

لم يُجب الراقص / المواطن، بل سقطتْ مقاومتُه للدموع على مساحة وجهه.

خذوني معكم

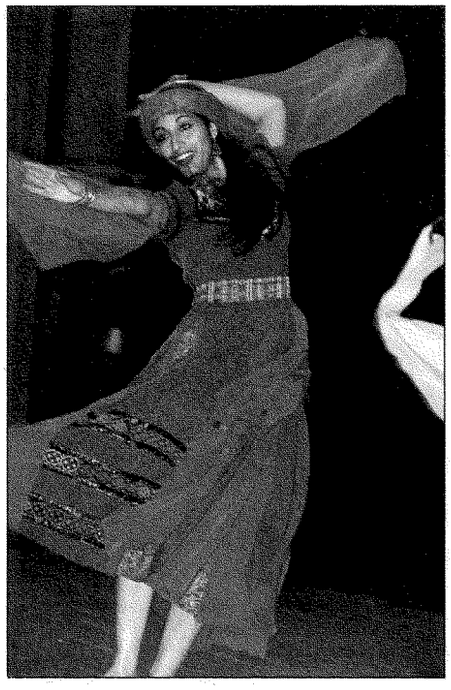

لاجئة : خذوني معكم في حقيبة السفر.

راقصة/مواطنة : ولكنها لا تسعك.

اللاجئة : إذن، سأنكمش إلى أقصى قدرٍ حتى تسعني.

الراقصة : وما أدراكِ أنكِ ستفرحين في نهاية الرحلة؟

اللاجئة : مَنْ لا يفرح حين يَلْمس تراب وطنه؟!

الراقصة : ربما كان الوطن موحِشاً بخيلاً...

اللاجئة : أبخلُ وطنٍ أكرمُ من منفى حاتميّ.

الراقصة : ولكنكِ ضيفة هنا، ولستِ في منفى حقيقيّ.

اللاجئة : دعكِ من كلام الجرائد، فالضيف يَفْقد صفته الجوهريّة هذه عندما تطول «ضيافتُه».

الراقصة : ولكنَّ المضيف لم يطردْك، إذاً فهو ما يزال يرضى بضيافتك.

اللاجئة : كرامتي تُطرَد كلَّ يوم، وروحي تُذَلّ كلَّ ساعة. ليته يطردني ويريحني.

الراقصة : وأين ستذهبين؟

اللاجئة : إلى فلسطين...

الحلم

الصحافيّ : لماذا تصرّون على وصف رحلتكم بالحلم؟ لقد عَرَضتم رقصاتكم في مصر والسويد والولايات المتحدة وغيرها... فلماذا تعتبرون زيارتكم إلى لبنان بالتحديد حلماً تحقّق؟

الفنان : لبنان مختلف. فالثقافة العربيّة لم تجد ملاذاً أكرم من لبنان حين ارتفعت السهامُ من كل الغابات لتقتنصها. ومثقفو لبنان وفنانوه لم يدعوا مجالاً للشك في تمايزهم وفي تأثيرهم العميق على الوعي العربيّ. ثم إنّ لبنان أنتج فيروز وزياد والرحابنة ومارسيل وحسين مروة ومهدي عامل والمقاومة المعاصرة ودار الآداب و... . وهو الذي أعطى للجوء موطناً، وللفلسطينيّ المقاوم خندقاً، ولكلّ حرٍّ عربيٍّ مساحةً للتعبير والحلم. لذلك حلمنا بهذا المكان رغم ضيقه، ورغم ألمه، ورغم انفصام شخصيّته.

الصحافيّ : ما انطباعك عن «عين الحلوة»؟

الفنان : لم يكن أسوأ مما تخيلته. فالحصار والذلّ كما توقعتُ، ولكنّ هناك شيئاً آخر لم أتوقعه ولم أفهمه : هناك تحدٍّ يلامس السماء، وحلمٌ يفوق إمكانيات الواقع، وبريقُ عينَيْن يَعْكس ضوء الشمس، أو ربما يَسْرقه قليلاً. الآن فقط فهمتُ لوحة ناجي العلي عن «عين الحلوة»؛ فهي عينٌ دامعة وحلوة في آن.

الصحافيّ : كيف شعرتَ في صور وقانا؟

الفنان : في صور أحسستُ أني في عكا، ولكنها عكا مختلفة، حرة أبيّة وتناطح البحر، لا بعناد أسوارها فحسب بل بإرادة شعبها كذلك. ليت روح صور تتناسخ لتصل عكا، ليت أمواجَ البحر ذاتها تَحْمل رسالةً من صور إلى عكا، تعيد الصلة وتعزّز الأفق الموحَّد ليطغى على زرقة البحر الموحشة.

أما قانا، آه، كيف أبدأ... لا أستطيع الحديث بعقلانيّة هنا... فقانا فتحتْ جروحَ دير ياسين وكفر قاسم وصبرا وشاتيلا. لماذا كل هذا «السلام»؟ أليس هو فقط السلام الذي يُقرّا على الأضرحة؟... إنهم يُبْدعون في زيارة الأضرحة ليقرأوا سلامهم على الجميع، ويرقصون رقصة السلام فوق الأضرحة ليربكوا الموتى حتى في لحظات سلامهم الأبديّ.

نتائج

أحد المضيفين : ما أهم النتائج التي حققتموها في لبنان؟

الضيف : أرى الموضوع من زاوية مختلفة ربما... فعمق الجولة وغناها يكمنان في العمليات التي ابتدأتْ أكثر من النتائج الماديّة التي ظهرتْ. فالنتائج كالسمك الذي تنجح في صيده، تَفْرح به لحظةً ثم تلتهمه وتنساه بعد حين. أما العمليّات فهي كمهارة الصيد ذاتها، تكتسبها مرّةً وإلى الأبد؛ فهي تجود دون حدود.

جباليا

الضيف : أين دخلنا الآن... ماذا جرى؟

المضيف : نحن الآن في الضاحية الجنوبيّة لبيروت، وهي غايةٌ في الفقر.

الضيف : تقصد أنّنا في مخيم جباليا في قطاع غزّة... بل نحن في الضحيّة الجنوبيّة.

المضيف : ماذا تقصد؟

الضيف : إنّنا عندما نتحدّث عن مخيّمات اللاجئين في لبنان ننسى أكبرَ مخيم لاجئين خلّفه الاعتداءُ والاحتلالُ الاسرائيليّ، وهو «مخيّم» الضاحية الجنوبيّة. لقد هُجِّر أهالي الضاحية من قراهم، من أراضيهم وحياتهم الأولى، فكانوا ضحيةً للحرب والاحتلال. كما ظُلموا طوال حياتهم في التوزيع الطائفيّ للموارد، وكأنّ كل القوى المتنازعة في لبنان لم تتفق سوى على حرمان هؤلاء «المواطنين» من حصتهم. ماذا تعني الديموقراطية بالضبط؟ أليست هي حكمَ الأغلبية أو على الأقل تمثيلَها نسبياً في السلطة؟ لماذا بقيتْ هذه الأغلبية خارج المطبخ الذي توزَّع فيه الكعكة؟ إنها حقاً الضحية الجنوبيّة.

المضيف : معك حق. ولكنْ دَعْكَ من المبالغة، فالوضع هنا على سوئه أفضلُ من وضع مخيّمات اللاجئين الفلسطينيِّين!

الضيف : أصعبُ ألفَ مرةٍ أن تكون غريباً في أرضك، ولاجئاً في وطنك، من أن تكون في المنفى. القضية وجدانيّة وأخلاقيّة في المقام الأول أكثر منها ماديّة. ماذا يعني الوطن وماذا يبقى من الهويّة إذا شَعَرَ الإنسانُ بالاغتراب؟

المضيف : لكنّ وصفهم بالضحايا وحسبُ ينفي جزءاً جوهرياً من كيانهم.

الضيف : أصبتَ. فهم لم يستكينوا لدورهم كضحية، بل استثمروا غضبهم ووجَّهوه بدقةٍ نحو المصدر الأهمّ لذلهم، فساعدوا في خلق نموذج فريدٍ في المقاومة الشعبيّة الذكيّة، التي هزّت المسلّمات التي رضعناها مع حليب أمهاتنا منذ الصِّغر والقائلة بالتفوُّق الأبديّ لإسرائيل. ما أروعَ غضب البؤساء عندما يتفجَّر في وجه مصدر بؤسهم بالتحديد، وعندما يُنذِر لا بإزالة الظلم الواقع عليهم فحسب بل بتحدّي معادلة الظلم ذاتها في المنطقة! للحظةٍ في لبنان ننسى غضبناَ على عَروبتنا، ويدغدغنا الشعورُ القوميُّ من جديد. وهذا وحده «يستأهل» كلّ الرحلة!

العمران في بيروت

المضيف : سمعتُ أنكَ مشيتَ على الأقدام لتستكشف معالم وسط بيروت؟ هل صُدمتَ؟

الضيف : لقد كانت بيروت دائماً تعاني التقسيمَ، جغرافيّاً، سياسيّاً، اقتصادياً... أما الآن فقد لملمتْ أجزاءها المتناثرة، ونشرتْ عباءتها على كل جسمها لتعزّز وحدتها، ثم اكتشفتْ أنّها تعاني انفصاماً حادّاً في الشخصيّة. لقد تعبتُ وأنا أبحثُ عن بيروت في وسط بيروت، وفي النهاية وجدتُ منها قطعاً هنا وأخرى هناك، وجدتُ قديماً يرمّم بذوقٍ رفيع، وقديماً يُمْحى دون رحمةٍ ولا ذكرى، وجديداً ينتصب عالياً ليغطي البحرَ والشمسَ والناسَ عن بيروت. تُرى، لمنْ تُرفَعُ الأبراج؟

السمك

المضيف : كيف السمك؟ هذا أفضل سمك في لبنان..

الضيف : كل شيء متْقنٌ إلى درجة الهبل!

المضيف : أظن أنّكم مهووسون بلبنان، ولو أطعمناكم أيَّ شيء ستجدونه رائع المذاق!

الضيف : لا أُنكر أنّنا مهووسون بلبنان. ولكنْ، حقاً، السلَطات والسمك هنا غرام! حتى الجرجير المر يتحوّل هنا سلَطةً عجيبة.. كل مكان نذهب إليه يفاجئنا بطعامه المميّز. إذاً الإشاعات صَدَقَتْ... على الأقل في الأكل. عندما نتحرّر، لا بدّ أن نَستقدم خبراء لبنانيّين لإنعاش السياحة والخدمات في فلسطين.

المضيف : يا صديقي، تملكون الكثير من الخبرات والطاقات ولكنّها مبعثرة. ثم إنّنا متقاربون جداً في العادات والتراث، والطبخ كذلك.

الضيف : ربّما. ولكنّكم طوّرتم نمطاً في التعامل وفي الطبخ وفي الخدمات، يميّزكم بالتأكيد عن باقي العرب.

وإلاّ فكيف تفسّر أنّ السمك الذي نصطاده من البحر الأبيض في فلسطين ومصر ولبنان يكتسب هو نفسه صفاتٍ مميزةً على موائدكم؟ لقد كانت أمي تردد دائماً أنّ عمليّة الطبخ هي «نَفَس» في الأساس، ثم تأتي المقادير. الآن فهمتُ ما كانت تعنيه.

النشيد الوطني

مسؤول التقنيّات : كيف نرتّب البرنامج؟ أنضع النشيدَ الوطنيّ الفلسطينيّ أولاً، وبعدَه اللبنانيّ؟

الفنان : بالطبع لا، اللبنانيّ أولاً...

(ثم فكّر في السؤال الغريب لأنّه لم يكن ليُسأَلَ مثلُ هذا السؤال في أيّ دولةٍ عربيّةٍ أخرى... إنّها حقاً لا تزال بيروت).

الدكتور

أحد الراقصين : شو اللّه جابره يعمل لنا كلّ ها الشغل؟

آخر : قناعات ومبادئ وقيم.

الأول : ما أروع أن نكتشف أنّ هذه الفصيلة لم تنقرضْ بعد!

اكتشاف الهدف

راقصة : أكثر ما أثّر فيّ من هذه الجولة أنّها ساعدتني على اكتشاف الهدف الذي نَعْمل من أجله. في السابق قدّمنا كلّ ما لدينا عن عناد وإصرار وتحدٍّ وربما «تيسنة»، ولكنّ الهدف لم يكن دائماً واضحاً. بعد حفلاتنا في بيروت وعين الحلوة والصرفند وبرج البراجنة ونهر البارد اتّضحت الصورة فجأةً: فأنا الآن أشعر بطاقة أكبر ولديّ عزيمة أقوى على الاستمرار. الآن لستُ في حاجة إلى استنفار كلّ مواردي النفسية والعاطفيّة لأعطي، بل أصبح عقلي جزءاً أساسيّاً من المعادلة. لقد قفز عقلي فوق السفينة ليلحق بمشاعري.

لا أرى النور

راقصة : متأسفة! ولكنّي بعد هذه الجولة فقدتُ المقدرة على رؤية النور.

راقصة : ولكنْ ألا ينبع النور من عينينا وقلوبنا أولاً؟ في هذا الزمن، مَنْ يَعْجز عن تعزيز مقدرته على اشتقاق النورُ مِنْ بين أكوام الظلمة، مَنْ لا يقاوم إغراءَ التسليم مع الجموع بغلبة العتمة، مَنْ لا يغذي نفسه وعقله بحلم النور عندما لا يراه،... سينزلق الى مستنقع التيار العام، فيحقق راحة البال ولو إلى حين، والاستقرارَ ولو كان وهماً، والشعورَ الزائفَ بالانتماء إلى المجموع ولو كان هذا الأخيرُ قطيعاً. أنا شخصيّاً، يا عزيزتي، أفضّل السباحةَ الصاخبة عكس التيار على العوم مع القطيع في مستنقع راكد؛ فأنا لا أحبّ أن أُجرَفَ ولا أن أتعفّن في الركود. التيار الراكد يَزحف بتثاقلٍ غريبٍ نحو الهاوية المعتمة، وهناك لن تساعدكِ إرادتُكِ أو أيُّ قوةٍ من داخلكِ على رؤية النور، لأنّه سيكون آنذاك قد تبخّر تماماً.

خلق فلسطين

راقص : يا صديقي، فلسطين التي تتحدّث عنها لم تكن يوماً، ولا هي موجودة الآن. يبدو أنّ الجياع هم أبلغُ الناس في وصف الولائم، وأنّ الفقير هو أقدرُ الناس على وصف رنين الذهب.

لاجئ : ولكنّ جدي حدّثني عن أرضنا، عن جنّة الزيتون، والقمح، والبرتقال، وآبار الماء...

الراقص : ولكنّ جدك ما يزال يحمل مفتاحاً سُرق بابه أو خُلع. إنّ الحلم هو الشيء الوحيد الذي لا تطاله سهامُ الحكومات ولا سجونُ الأباطرة، وهو مصدرُ إلهام حين يَنْضب معينُ الواقع، وهو الحديقة التي يتنزّه فيها العقلُ حين تُسَدّ كلُّ الحدائق أمامه. ولكنّك إذا تعاملتَ مع الحلم وكأنّه موجودٌ حقاً فستصاب بالوهم أو الجنون، وستفقد الصلةَ السحريّة التي تربط الحلم الخصب بالواقع العاقر. إنّ أعداءنا ينتصرون مرتيْن: حين يصيبوننا باليأس أو حين يجرّوننا إلى الوهم؛ والاثنان مرتبطان عضوياً. فمع أول احتكاكٍ للواهم بالواقع المرير ينهار عليه وهمُه العالي دون رحمة ولا تدرُّج.

اللاجئ : لقد أدمنتم الهزيمةَ ورضيتم بالواقع، ولكن اسألوا أنفسكم: ألم يكن حلمُ الصهاينة أهمَّ مقوّمات استعمارهم لفلسطين؟ ألم تكن الأرضُ برمّتها معنا، ومدنُنا المزدهرة وثقافتنا ومجتمعنا العربيّ الكبير؟ لماذا لم يُصَب الصهاينةُ باليأس، بل عملوا بمثابرة لتحقيق «وهمهم» فأصبح واقعاً ليقلب واقعَنا وهماً؟! إنّنا لا نطلب المستحيل ولا نتوقع المعجزات، ولكنّنا نحمي حلمنا بغيرةٍ وحرصٍ قلّ نظيرُهما. ونحن بذلك نحمي الذكرى، أي الواقعَ الذي مضى أو انتُزع منا.. فأين الوهم هنا؟

الراقص : لا تُسِئ فهمي، فأنا معك في الدفاع عن الذكرى والحلم. ولكنْ لنصلَ الحلمَ بالتغيير لا بديل عن استيعاب دروس الواقع. دعني أقترحْ صيغةً مختلفةً لأوضحَ ما أقصده: إذا نظرنا إلى الواقع لا كصورة «پولاروید» ساكنة، بل كشريط ڤيديو متعدِّد الأبعاد، استطعنا أن نفهم حقائق الحاضر كما هي دون إسقاط رغباتنا أو أوهامنا، وفي الوقت نفسه دون أن نفقد حسّنا بالصيرورة والتغيير ومقتضياته، وبهذا لا نغرق في ترعة «الواقعيّة» التي يحاول أعداؤنا تجريعنا إياها. شريط الڤيديو هذا يتيح لنا أن نعود قليلاً إلى الوراء، فنرى تاريخاً طمسوه، ونستلهم واقعاً غيرَ موجودٍ نَفْرضه بإرادتنا. المهم ألا يكون الشريط انتقائياً بحيث لا يصوِّر إلا أمجادَ الماضي!

عمر البرغوثي

رام الله في ٢٠٠٠/٥/١٥